الإجادة على الإفادة

تـــألـــيـــف

العلامة القاضي سيـــدي أحمد سكيرج
رحمــــه الله و رضي عنه

تحقيق
ذ: محمد الراضي كنون الحسني الإدريسي

رقم الإيداع القانوني 97/1326
ردمك 9981 - 153 - 02 - 8

مطبعة
المؤلف محمد الراضي كنون
الهاتف 01 39 21 98
07 65 14 00

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد الفاتح الخاتم و على آله وصحبه و سلم

الإجادة على الإفادة[1]

حمدًا لمن شرح صدور ذوي العناية من الخلق. فشكروه بلسان الصدق. فأدخلهم لرياض أنسه، و توجهم بتيجان القبول من حضرة قدسه. و أدار عليهم كؤوس الخمرة العرفانية. فطربوا على قدر ما منحوه من المواهب الربانية.

و كانوا لحمل السر أهلا و كلهـم — ببحر من العرفان في الكون يسبح
و إن كتموا أسرارهم عن سواهم — فإن لسان الحال منهم يصـــــرح
هم في الأوان كالأواني لســـره — و كل إناء بالذي فيه يرشـــــح

[1] الإجادة على الإفادة: أراد من خلاله تسليط الضوء على محتويات كتاب الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية. للمقدم الشريف سيدي الطيب السفياني رحمه الله و رضي عنه. و يظهر من اختياره للفظ الإجادة أن مراده كان منصبا لتصحيح بعض الهفوات الواردة في الكتاب المذكور. ولم يكن العلامة سكيرج أول من أزمع القيام بهذا المسعى الحميد. بل سبقته في هذا النطاق رغبة أكيدة من طرف بعض أكابر علماء الطريقة. كالمقدم سيدي محمد بلقاسم بصري المكناسي. وسيدي محمد أكنسوس. و سيدي محمد العربي بن السائح و آخرين.
غير أن رغبة هؤلاء لم يكتب لها أن ترى النور، الشيء الذي دفع العلامة سكيرج إلى السير نحو إنجاز هذا العمل الجليل، بيد أنه هو الآخر لم يكتب لعمله هذا أن ينجز، و اكتفى بكتابة صفحات قليلة منه.
و لا بأس أن نذكر في هذا المحل كلاما للعلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح حول هذا الكتاب. قال رضي الله عنه:
كتاب الإفادة. وقع فيه إيهامات و مبهمات كثيرة. و نقل شيء على غير ظاهره. فيجب أن لا يعمل فيه إلا بالمشهور المتواتر عن سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه، و أما غيره فلا، و انظر ما وقع في الإفادة في حرف الواو من قول صاحبها: و الله ما قطع مقام التوبة. و نسبه إلى سيدنا رضي الله عنه. و ليس بصحيح. فإنه لم يقل سيدنا رضي الله عنه كذلك. و إنما قال سيدنا الشيخ لما سئل عن الشيخ سيدي محمد بن القطب سيدي أحمد الصقلي و عن مقامه. ما نصه: قرب أن يقطع مقام التوبة. و بقي شيء يسير بينه و بين درجة القطبانية. هذا معنى قول الشيخ رضي الله عنه. فبين القولين المنقولين مخالفة. و لذلك كان الشيخ الإمام العلامة العارف بالله سيدي محمد بن أحمد أكنسوس الجعفري رضي الله عنه. كان قد أخذ كتاب الإفادة و نقل منه الصحيح الثابت المروي عن سيدنا الشيخ رضي الله عنه. و يقول: بلغنا عن الشيخ رضي الله عنه كذا و كذا. حتى أتى على جميع كتاب الإفادة. فما أخذه الفقيه المذكور و صححه فهو صحيح. و ما لم يأخذه و لم ينقله في رسالة البلاغ فلا عمل عليه و لا يلتفت إليه، لأن الناقل لكتاب الإفادة رضي الله عنه كان ينقل عمن وجد من غير تثبت في ذلك فافهم. قال: و قد أمر بعض المقدمين من العلماء المعتبرين في الطريق برفض هذا الكتاب و حرقه لما فيه مما هو منقول عن الشيخ رضي الله عنه و ليس بصحيح و لا معمول به. إهـ

ملئت قلوبهم حكمة. و امتلأت صدورهم رحمة. قدس الله أرواحهم. و الصلاة والسلام على ينبوع الفضل. و من هو في وجود الموجودات أصل.

خير الأنام محمد من فضله عمَّ الوجود وجوده لا ينفــد
و لأجله قد أوجد الله الورى لولاه هذا الكون لم يك يوجد

و على آله أمان الله في الخلق. و أصحابه المؤيدين له بكمال الإيمان في اتباع الحق. ورضي الله عن حامل سره الرباني. العارف الصمداني. خاتم الولاية المحمدية. والمتقدم أمام أهل الحضرة الأحمدية. أبي العباس سيدنا و مولانا أحمد التجاني. سقانا الله و جميع المحبين منه بأعظم الأواني.

و بعد، فإن لسان الحب في جناب هذا القطب الرباني. دعاني إلى إخراج ما قيدته على كتاب الإفادة الأحمدية. لمريد السعادة الأبدية. و إيضاح ما اشتملت عليه. فإنها قد جمعت من كلام سيدنا و سندنا قطب الأقطاب التجاني جملة وافرة، عالية المسلك، غالية المدرك، صائبة المنفذ، سهلة المأخذ، يفرح بها المحب في الجناب الأحمدي. وتتقبض بها نفس الحسود المعتدي. فأجبته لما دعاني إليه معتمدا على توفيق الله. وهو المستعان عليه و عنونته بالإجادة على الإفادة. و قد كنت كتبت على نسخة منها هذه الأبيات و نصها:

هذي الإفادة ضمنها أســــــرار و بها معان كلها أزهــــار
تشفي مطالعها و تشرح صــدره و عليه منها تشرق الأنوار
هي من كلام الشيخ عقد جواهـر متناسق باهت به الأحبــار
لو أنها ظهرت لعين حسودهـــا زادت بما فيها له الأغيــار
أو أنها حلت بأيدي وامـــــــق زالت بها عن قلبه الأكدار
فاعرف بها و بحق من وافى بها فلها على أفق العلا المقدار
بشراك يا من في محاسنها غدت منه تنزه في الورى الأفكار
فيرى سطور معارف قد سطرت فيها شطور منى لها أسرار
لم لا و جامعها الجليل مقامــــه من بين صحب كلهم أقمـار
ذاك الشريف الطيب ابن الطيب الـــــــــــعالي المقام و من له أنــوار[1]

---

[1] الطيب بن محمد السقفي الشهير بالسفياني. من خاصة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، توفي في شهر جمادى الثانية عام 1259 هـ، و دفن بجبل زعفران خارج باب عجيسة من فاس، أنظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج 170_184. رفع النقاب، للمؤلف نفسه 2: 235_249. إتحاف أهل المراتب العرفانية بذكر بعض رجال الطريقة التجانية، للعلامة الحجوجي: الجزء الأول رقم الترجمة 14. نخبة الإتحاف فيمن منحوا من الشيخ التجاني بجميل الأوصاف، للمؤلف نفسه رقم الترجمة 20. روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بمشاهير أهل الطريقة، لابن محمد العلوي الشنقيطي رقم الترجمة 10. موسوعة أعلام المغرب (إتحاف المطالع) 7: 2567. رسائل معلمة معالم سوس أبي عبدالله سيدي محمد أكنسوس، للعبد المذنب محمد الراضي كنون 1: 75.

لله در يَدٍ بِـــــــدُرٍّ نظمتـــــــــــــــــــها من تجان درها مختـــار
فيها لكل مطالع نيل المنـــــــى   و بها تتم لحزبها الأوطـــار

ولقد ترجمت لمؤلفها في كتابنا كشف الحجاب، عمن تلاقى مع القطب التجاني من الأصحاب رضي الله عنه بما فيه غنى عن ذكره هنا، و من الله أستمد الإعانة على ما أردته من هذا الشرح و التوفيق لما جمعته لما فيه في الدارين تمام الربح و التأييد في الحقيقة بالسلوك على أقوم طريق، و أن ينفع به الإخوان، في السرِّ و الإعلان، إنه رب ذلك و القادر عليه، و لكن لا بأس بذكر مقدمة منوطة بما قاله بعض جلة الطريق في هذه الإفادة، و ما كان زعمهم عليه فيها قبل انتشار نسخها بيد الإخوان، فنقول:

مقدمة

اعلم أن ما اشتملت عليه الإفادة الأحمدية من كلام سيدنا رضي الله عنه قد تلقى جله المؤلف رحمه الله عن سيدنا رضي الله عنه مشافهة و سماعا منه. مع اطلاعه على السبب الذي يذكره عقب كل جملة من جمله المذكورة في حرفها، و بعض ذلك رواه عن بعض الخاصة من أصحابه حسبما أشار إلى ذلك في خطبتها، فأما ما تلقاه مشافهة منه فقد سلك فيه مسلكا لا إيهام فيه و لا إبهام، و لا شك فيه و لا في ذكر سببه عند ذوي الأفهام، و أما ما نقله عن غيره فقد اضطرب فيه الفهم، حتى تنازع في صحته العزم و الوهم، فكان بسبب ذلك علماء الطريقة يتساءلون عما تضمنه، فترجح عند خاصة الأعلام من أعيان الإخوان قبول ما تواتر عن الشيخ من الموافق لجمل حروفه، مع إلغاء ما انفرد به مؤلفه مما لم ينص على أنه سمعه عن الشيخ رضي الله عنه.

و لقد وقفت على كلام يتعلق بهذه الإفادة في كنانيش[1] الولي الصالح، ذي الفضل الراجح، العارف بالله، بركة العصر، أبي عبد الله سيدي محمد بن يحيى بلامينو

[1] من ذلك ما جاء في كناش الفقيه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي عن العلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح أنه قال: كان المقدم سيدي محمد بلقاسم بصري قد أمر بجمع النسخ الموجودة منها. فجمع ذلك كله إلا واحدة طارت بها الركبان لعين ماضي حيث نجل سيدنا رضي الله عنه. و بقيت واحدة عندي. لم يقدر المقدم أن يكلمني فيها ظننًا منه أني لا أظهرها لأحدٍ حتى يأمرني بما يكون عليه العمل في شأنها. ثم أتى نجل سيدي الطيب السفياني لمكناس. و أنزل لي عمامته بين يدي. و قال لي: هذا عار مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم عليك. أحبك أن تعطيني كتاب الإفادة الأحمدية. قال: فاستحييت منه و لم أشعر أن أعطيتها له. بعدما أخذت عليه المواثيق و العهود أن لا يعطيها حتى آمره بذلك. ثم كان من قضاء الله و قدره أن استعجل فأظهرها بالفور. و كان مراد سيدنا المقدم رحمه الله بإخفائها و جمع نسخها أن يكون عليها تقييد يشرح معانيها. و يرصع مبانيها. لأنها لا تستغنى عن الشرح كما هو ظاهر. ثم انتشرت عند الناس حين انتسخت من ذلك السيد نسخ كثيرة. فزهد المقدم رضي الله عنه فيما كان ناويًا له من التقييد عليها. ووقع له غيظ عظيم في ظهورها على تلك الحالة بلا بيان يوضح مراد صاحبها. و الله غالب على أمره. إهـ ..

الرباطي[1] أدام الله حرمته، و حدثني به أيضا مشافهة حسبما حدثه به الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح رضي الله عنه[2].......

حرف الألف

قول سيدنا رضي الله عنه "إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه و ما خالف فاتركوه"

هذه المقالة من سيدنا رضي الله عنه نصبها ميزانا مستقيما بين أعين مريديه وأصحابه، لوزن ما ينسب إليه من قول أو فعل أو حال أو اعتقاد، و كل شيء من الأشياء، منبها لهم به على أنه لا يؤخذ منه إلا ما كان موافقا للشرع، و أما ما خالف الشرع فلا يؤخذ منه بل يترك و يطرح، لأنه لا يأمر إلا بما يوافق الشرع من ذلك. وقد جرى في هذه المقالة مجرى النصح التام، للخاص و العام، في كون الشيخ لا يتبع إلا فيما جاءت الشريعة به، و أما ما يخالفها فلا يقتدى به فيه، و ذلك أن كل شيخ زالت الشريعة عنه في سائر أحواله أو في بعضها فإن الإقتداء به مضر، و لو كان لخوارق العادة بكل كرامة يظهر، كما قال الإمام ابن العربي الحاتمي قدس سره:

لا تغترر بالذي زالت شريعته عنه و لو جاء بالأنبا عن الله[3]

و ذلك بأن يكون جاهلا من أول الأمر، أو مجذوبا مطبقا عليه، لا يفرق بين نهي أو أمر، أما الأول فيلغى رأسا كما يقول الشريشي رحمه الله في رائيته في صفة الشيخ:

إذا لم يكن علم لديه بظاهر و لا باطن فاضرب به لجج البحر[4]

---

[1] سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

[2] سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

[3] البيت من قصيدة هائية للشيخ محيي الدين ابن عربي الحاتمي قالها لدى مطلع الباب 181 و هو في معرفة مقام احترام الشيوخ و نصها:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدبا لله بالله
هم الأدلاء و القربى تؤيدهم على الدلالة تأييدا على الله
الوارثون هم للرسل أجمعهم فما حديثهم إلا عن الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولههم عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعهم و لا تسلك لهم أثرا فإنهم طلقاء الله في الله
لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه و لو جاء بالأنبا عن الله

[4] البيت من قصيدة أنوار السرائر و سرائر الأنوار، للعلامة الصوفي أحمد بن محمد الشريشي، وهو البيت السادس عشر من القصيدة المذكورة.

و أما الثاني فسلم له حاله. و لا يقتدى به في شيء من أحواله. و أما إذا كان سالكا في حال مجذوبا في حال، فهو صاحب حال يقتدى به فيما يوافق الشرع، و لا يقتدى به فيما خالفه، و يسلم له حاله، و لا يعترض عليه بعنف، و إنما ينبه عليه خشية أن يقتدي به فيه الغافل عن حكم ما صدر منه، مع ملازمة الأدب معه بأتم وصف، و أما السالك العالم العامل إذا صدر منه ما يخالف الشرع فلا يقتدى به في ذلك، غير أنه لما كان المريد المستغرق في محبة شيخه قد يحمله صدق حبه على أن يقتحم الإقتداء به في تلك المخالفة، و يظن أنه مأمور بذلك لهذا السبب، أشفق كل شيخ كامل على مريديه بالتنبيه لهم على أن مخالفة الشرع لا يقتدى بهم فيها، و ليس كل ما يصدر منهم يعد موافقا للشرع، و قد كان الإمام مالك و ربيعة[1] يقولان: لسنا من أهل العصمة في كل ما نقول، بل كذلك في كل ما يفعلان.

و كان الإمام مالك أيضا يقول: كل كلام فيه مقبول و مردود إلا كلام صاحب هذا القبر. و يشير لقبر الرسول صلى الله عليه و سلم، و كان الإمام الشافعي يقول: إذا سمعتم مني قولا يخالف قول الرسول صلى الله عليه و سلم فاعملوا بكلام رسول الله و اضربوا بكلامي هذا الحائط، و هذه المقالة شبيهة بمقالة سيدنا رضي الله عنه، ولكن مقالة الشيخ أعم، لشمولها لكل شيء يخالف الشريعة، قرآنا و سنة و تقريرا، أو إجماعا أو قياسا.

و قد كان الإمام أحمد يقول: لا كلام لأحد مع كتاب الله تعالى و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم، فهم رضي الله عنهم يتبرؤون مما يصدر منهم أو ينسب إليهم من الأشياء التي تخالف الشرع، و كذلك غيرهم من كمل العارفين يتبرؤون من ذلك، و الغالب ما ينسب لهم من ذلك يكون مدسوسا عليهم و مكذوبا عليهم فيه، و لذلك لما قيل لسيدنا رضي الله عنه أيكذب عليك؟ قال نعم، و هو سبب قوله: إذا سمعتم عني شيئا فزنوه. إلخ ... فكأنه يقول رضي الله عنه: ما كان موافقا للشرع فنسبته إليَّ صحيحة. فخذوه و لا تهملوه. و ما كان مخالفا فهو مكذوب عليَّ فاتركوه. و لا تعرجوا عليه بحال، ولو كان في نفس الأمر صادرا عني لأني لا أوافق إلا على ما كان موافقا للشرع غير مخالف له.

و لكن الغالب فيما خالف الشرع أن يكون مكذوبا عليه فيه. فهو متبرئ منه. غير أنه لا سبيل للقطع بكذب ما ينسب له من ذلك. لأنه لم يقل أجزموا بكذبه. و إنما قال فاتركوه. و الأمر بتركه لا يقضي بالقطع بأنه مكذوب عليه. إلا ما كان من الباطل الذي لا يصدر عن عاقل. فالجزم بكونه مكذوبا عليه هو المتعين على كل متدين يقدر قدر أهل الله الكمل. خصوصا من كان منهم معلوم الفضل، زكي النفس، سامي القول و الفعل، و بالأخص خاتمهم الأكبر سيدنا القطب التجاني رضي الله عنه. فإن لكلامه

[1] ربيعة بن فروخ التيمي المدني، يدعى بربيعة الرأي، و به تفقه الإمام مالك، و هو أحد كبار علماء عصره بالمدينة المنورة، قال فيه ابن الماجشون: ما رأيت أحدًا أحفظ للسنة من ربيعة. توفي سنة 136 هـ، أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 3: 17.

صولة و مذاقاً يتحقق به صاحب الذوق السليم ما يؤيد به قوله. و أما ما ينسب له من القول و لم يكن من فعاله فيكاد أن يجزم بكونه ليس من كلامه من يعرف جلالته بما ينطق به لسان حاله.

و قد وقفت على تأليف صغير الحجم سماه مؤلفه: يعسوب السر الرباني، في الشيخ أبي العباس التجاني[1]. لم يراقب واضعه مولاه فيما وضع فيه من الكذب على الشيخ رضي الله عنه في كرامات عدها و لا أصل لها. مع كلام في فضل الطريقة التجانية لم ينقل عن الشيخ قدس سره و لم يقله. و نَوَّهَ فيه غاية التنويه بالمسمى السيد عبد المالك بوطيبة و السيد عبد الباقي المرشدي. و هما من أصحاب الشيخ رضي الله عنه. و أفرط غاية الإفراط بذكر ما يرويه عنهما بعبارة عامية. دالة على أن ذلك الكلام لا يصدر إلا عن جاهل بالطريقة. أو عامي زنديق، و أدى به الحال إلى تفضيلهما على الشيخ رضي الله عنه. مع بعض كلامهما مما هو من الكفريات غير بعيد، و حاشا من جريان ذلك على لسان أحد من أصحاب الشيخ العامة. فضلا عن الخاصة، فليحذر من عثر على ذلك التويلف من الضلال، و ليتحقق أن طريقتنا المحمدية ليست على ذلك المنهج الذي يفضي للوبال، عياذا بالله من الجهل، و سوء الأدب على ذوي الفضل.

و لما طالعته أمرت من وجدته عنده بحرقه و تمزيقه، لأنه محض كذب لا يأتي بخير. ليستريح منه الغير، و قد حدثني محل الأخ حفيد شيخنا العارف بالله سيدي أحمد العبدلاوي رضي الله عنه سيدي أحمد بن السائح أنه حلت بيده نسخة من ذلك التويلف بعين ماضي. فقرأه على حفيد سيدنا قدس سره العارف بالله سيدنا البشير[2] رضي الله عنه. فحصل له به غيظ كبير على مؤلفه. و كتب للإخوان و الأحباب القاطنين بالوطن بعد تمزيقه. محذرا لهم من مطالعته. و آمرا لهم بحرق ما يعثرون عليه منه.

<u>قوله رضي الله عنه</u> "أكابر أقطاب هذه الأمة لا يدركون مراتب أصحابي"

---

[1] حول هذا التأليف قال العلامة سكيرج في كتابه جناية المنتسب العاني فيما نسبه بالكذب للشيخ التجاني 2: 64. قال: و قد وقفت عند بعض الإخوان في قبيلة بني يزناتن، من دائرة مدينة وجدة من الإيالة المغربية، و أنا متول لخطة القضاء بها، على تويليف في نحو كراسين، ذكر فيه مؤلفه بعض فضائل الطريقة التجانية، و ما هو من الكرامات و الفتوحات الربانية، مما رآه في نظره من المناقب المختصة بالشيخ التجاني رضي الله عنه، و بأصحابه العامة منهم و الخاصة، و نوه غاية التنويه بصاحبي الشيخ رضي الله عنه السيد عبد المالك بوطيبة و السيد عبد الباقي المرشدي، و أفرط غاية الإفراط فيما نقله عنهما من ذلك بعبارة عامية، دالة على أن ذلك الكلام لا يصدر إلا عن جاهل بالطريق، أو أمي زنديق، أو مبغض في الشيخ و في صاحبيه المذكورين و في طريقته الأحمدية، ليتداول العامة ذلك فيقوم ضجيج الإنكار بما نسبه إليهم من تلك التقولات، التي هي من قبيل الترهات و التهورات، التي تشغل الأفكار و تشتعل بها نار الإنكار.

[2] المراد به سيدي محمد البشير بن محمد الحبيب بن الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله تعالى عنه، سبقت ترجمته ضمن الجزء من هذه الرسائل.

اعلم أن أهل الله الذين أذن لهم في التعبير عما أدركوه من المقامات إلهاما من الحق لهم ليزدادوا بذلك ترقيا فيها بمقتضى شكر النعمة و التحدث بها في سائر الحالات، لا يمنعهم من ذكر ما أحرزوه بالفعل. و ما وعدوا به من الفضل، ما يخطر على الأوهام من التبجح، و حب التمدح، لصفاء سريرتهم، و تنوير بصيرتهم، و تنزيه قدرهم من أن يقفوا مع هذا الحظ الذي تنحط به الرتب العلى إلى الحضيض الأسفل. و الدرك الأرذل، و الظن بهم أن يكون قصدهم المولى، كما هو أليق بهم و أولى، فإن التحدث بالنعم مأمور به شرعا[1]، و القصد من أعمال القلوب لا سبيل إلى الإطلاع على حقيقته قطعا، و إنما يطلع عليها من يعلم السر و أخفى.

فالمتعين إذًا سلوك حسن الظن بكل متحدث منهم بما أعرب عنه من الفضائل والمناقب. و حسن الشمائل و المراتب. و نحو ذلك مما يخصهم أو يعم غيرهم بسببهم [2]. إلا أن إساءة الظنون بمن جرى على هذا المهيع قاضية بالطرد و المقت و البعد، نسأل الله السلامة من ذلك.

و قد ابتلي جل أهل كل زمان بالنظر إلى معاصريهم من المتحدثين بالنعم بعين التهم. و سوء الظن بهم فيما يقولون أو يفعلون. و يخصون من مضى قبل زمانهم بالتقديس[3] و حسن النية طبق ما ينكرون أو يعتقدون، تلك سنة الله سنها لهم ما جبلت عليه النفوس من الإرتياب. و ألزمهم السلوك على منهجها ما انسدل عليها من حجاب المعاصرة الذي هو أعظم حجاب. فلم ينتفع بأهل عصره إلا القليل من قليل. و تلك سنة الله في خلقه جرت على نهجها القويم من قديم. حتى لا ينتفع إلا الخاص بالخاص. بمحض الإختصاص، لذلك تجد كثيرا من أهل الله لا ينتفع بهم إلا البعض

---

[1] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: التحدث بالنعم شكر. إهـ.. مسند الشهاب القضاعي 1: 61 رقم 44، و من ذلك أيضا قوله صلى الله عليه و سلم على المنبر: من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، و من لم يشكر الناس لم يشكر الله، التحدث بنعمة الله شكر، و تركها كفر، و الجماعة رحمة، و الفرقة عذاب. إهـ.. مسند الإمام أحمد (حديث النعمان بن بشير) 5: 349 رقم 18104 رقم 18105.

[2] قال في الفتوحات المكية و لما كانت النعم محبوبة لذاتها، و كان الغالب حب المنعم، حتى قالت طائفة إن شكر المنعم واجب عقلا، جعل الله التحدث بالنعم شكرا، فإذا سمع المحتاج ذكر النعم مال إليه بالطبع و أحبه، فأمره أن يتحدث بنعم الله عليه، و أما بنعمة ربك فحدث، حتى يبلغ القاصي و الداني، إلى أن قال: و من هذا الأمر ذَكَرَ أهلُ الله ما أنعم الله به عليهم من المعارف و العلم به و الكرامات، فإن النعم ظاهرة و باطنة، و قد أسبغها على عباده كما قال: و أسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة. إلخ..

[3] أشار إلى هذا بعض الشعراء بقوله:

قل لمن لا يرى للمعاصر شيئا — و يرى للأوائل التقديمـــــا
إن ذاك القديم كان حديثـــــــا — و سيسمى هذا الحديث قديما

و منه أيضا قول شاعر آخر:

أولع الناس بامتداح القديم — و بذم الجديد غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحـــــــي — و رقوا على العظام الرميم

من الناس. و لا يحصل فيهم اعتقاد من أهل قطرهم. بل من أهل عصرهم. إلا من يسره الله لهم أو يسرهم له. فيجد من نفسه قابلية الحب فيهم. و إقبالا على ما يقابله منهم بوجه القبول، فيرى الخصوصية فيهم. فيجد ذاته كلها عيونا تنظر. و تنتظر ما يلوح لها من محاسن من اعتقدت فيه تلك الخصوصية. و كله آذانا تسمع حديثه و ما حدث عنه. و كله ألسنة تثني عليه طبق ما له من حسن الظن فيه. حتى أنه يستحسن ما يستقبحه غيره. و يهجر من أجله من لا يوافقه في الإعتقاد، و هذا كله من قبيل ما يسلمه كل شخص. و ذلك ليستدل على صحته بما يجده من الحال في نفسه. بين أبناء جنسه. فلا يحتاج إلى الإستدلال عليه من كلام رجال هذا المجال.

و إذا تقرر هذا المقال في هذا المقام أنتج لمطالعه نتيجة حسن اعتقاد في كل من حدث بنعمة مولاه. بما خصه به و أولاه، و لا يفتح باب الإنكار لفضله الذي أعرب عنه بنفسه. إلا المحروم في معناه و حسه. و لا موجب للإنكار أو الإعتراض إلا سوء الظن. أو الحسد. أو سوء الأدب. و قل من يصدر منه ذلك من غير حظ نفس. و هو نفساني. و لهذا تجد الكمل من العارفين يزرعون حب الأدب في قلوب المحبين. ويؤكدون عليهم قطف ثماره من أفنانها. حتى يتمكن فيهم ذلك ليكمل لهم الإنتفاع بسراية السر عند الإستمداد منهم. أو التعلق بهم. أو الإختصاص بهم من بين العموم. و كثيرا ما يلهج الكمل بين مريديهم بما منحهم الحق به ليتمّ على يدهم الإنتفاع لعمومهم و خصوصهم. و ينوهون بما أحرزوه من المقامات من بينهم حتى ترسخ المحبة في قلوبهم. و هي المغناطيس الجاذب للسر النافع. الذي لا تؤثر فيه عوامل القواطع.

و المقصود من ذلك كله توثيق العلائق و الروابط القلبية بين المريد و شيخه. فيظفر بالمراد طبق ما يريد. و فوق ما يريد. و كل شيخ يصرح بما يرى فيه مريديه. و كلما عظمت رتبته زاد تنويها بما لديه. ليعظم الإنتفاع على يديه. و من هذا الباب قول سيدنا رضي الله عنه: أكابر أقطاب هذه الأمة لا يدركون مراتب أصحابي.

قول سيدنا رضي الله عنه: القطب له عصمة كعصمة الأنبياء عليهم الصلاة و السلام

معناه أن القطب محفوظ من الوقوع في المعصية. لا تصدر منه لا في السر و لا في العلانية، فالعصمة للقطب هي الحفظ التام. من الوقوع في الآثام. بحيث لا يكاد أن تصدر منه معصية قبل تكليفه و بعده. حتى أنه يكاد أن يحكم عليه بأنه لا يعصي الله أبدًا في جميع أحواله. و إلا فليس بقطب. فإن تأكيد الحفظ من المعاصي في حقه هو كالشرط في المتصف بالقطبانية. و هو المراد بتشبيهه بالعصمة. و إلا فالعصمة على الحقيقة لا تكون إلا للأنبياء. [1]

[1] قال في الفتوحات المكية إذا حصلت للإنسان حالة مشاهدة عين فقد كمل و كملت معرفته و عصمته، فلم يكن للشيطان عليه من سبيل، و تسمى هذه العصمة في حق الولي حفظا، كما تسمى في حق النبي و الرسول عصمة، ليقع الفرق بين الولي و النبي، أدبا منهم مع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة و السلام، ليختصوا باسم العصمة، و مع هذا فإني أبين الفرق بينهما، وذلك أن الأنبياء لهم العصمة من الشيطان ظاهرا و باطنا، و هم محفوظون من الله في جميع حركاتهم، و ذلك لأنهم قد نصبهم الله للناس و لهم المناجاة الإلاهية، فالأنبياء المرسلون معصومون من المباح أن يفعلوه من أجل نفوسهم، لأنهم يشعرون بأفعالهم و أقوالهم، فإذا فعلوا مباحا يأتونه للتشريع ليقتدى بهم، و يعرفون الأتباع عين الحكم الإلاهي فيه، فهو واجب عليهم ليبينوا للناس ما أنزل إليهم، يقول الله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، و إن لم تفعل فما بلغت رسالته، و الله يعصمك من الناس، و للورثة من هذا التبليغ حظ وافر، و الولي محفوظ من الأمر الذي يقصد الشيطان عند إلقائه في قلب الولي ما شاء الله أن يلقي إليه، فيقلب عينه بصرفه إلى الوجه الذي يرضي الله، فيحصل بذلك على منزلة عظيمة عند الله، و لولا حرص إبليس على المعصية ما عاد إلى هذا الولي مرة أخرى، فإنه يرى ما جاءه به ليبعده بذلك من الله يزيده قربا وسعادة، و الأنبياء معصومون أن يلقي الشيطان إليهم، فهذا الفرق بين العصمة و الحفظ، و إنما جعلوا الحفظ للولي أيضا أدبا مع النبي، فإن الشيطان ما له سبيل على قلوب بعض الأولياء من أجل العلم الذي أعطاه التجلي الإلاهي لقلوبهم، يقول تعالى: و حفظا من كل شيطان مارد. إلخ..

و مذهب الشيخ هنا جارٍ على ما قاله أكابر أهل المعرفة بالله الذين يقولون بأن الولاية لا تكون إلا للمحفوظ من الوقوع في المعاصي. حتى قال بعضهم في قوله تعالى: و لم يكن له ولي من الذل[1]: أن الحق تعالى نفى الولاية عن كل من صدرت منه معصية. و بعضهم قال فيها: لا يكون وليا من نتج عن معصية كولد الزنا. و بعضهم قال: لا يكون وليا من وقعت فيه الفاحشة. و خص بعضهم عدم صدور المعصية ممن يحل محل القطبانية بالفعل. و أما قبل جلوسه على منصتها فالمعصية تصدر منه. و يوفق للتوبة. حتى أن بعض العارفين سئل هل يزني العارف؟ فقال: قد يزني و كان أمر الله قدرا مقدورا.[2]

ثم إن كلام سيدنا رضي الله عنه يؤخذ منه بالتشبيه أن القطب لا يصدر منه ذلك بعد جلوسه على كرسي القطبانية. و يؤخذ أيضا من قوله أن حالة القطبانية محفوظة من ذلك. و أما قبل صيرورته قطبا فقد يعصي. و مقتضى العصمة أنه لا يعصي قبل جلوسه على منصة القطبانية أيضا. سواء كانت كبيرة أو صغيرة. فإنها لا تصدر منه حالة قطبانيته. و قد يتنزل على أنه لا تصدر منه الكبيرة. و أما الصغيرة فقد تصدر. كما قيل بجواز صدورها من النبي قبل النبوة. و الذي أعتقد أن النبي قبل النبوة معصوم من ذلك كله. لأن العصمة تدفع عن نفسها وقوع المتصف بها في ذل معصية. و إنا لله ممن جوز صدورها منه مع أن الولي هو قطرة من نبي، و قد قيل فيه بأنه لا يكون وليا إن صدرت منه، و يقال أن المعصية لا تسلب الولاية. و لكن حالة التلبس بها يكون الولي في حجاب الغفلة. كالمؤمن الذي يتلبس بمعصية الزنا. فإنه يكون محجوبا عن إيمانه كما نص عليه حديث: لا يزني الزاني و هو مؤمن[3]. إلخ ... فهو بعد الفراغ من المعصية و توبته منها يرجع له الإيمان. و ترجع للولي ولايته. لكن في نقص عن المرتبة التي كان فيها.

---

[1] سورة الإسراء الآية 111

[2] قال الإمام النووي في كتابه بستان العارفين ص23: قال الإمام القشيري: فإن قيل هل يكون الولي معصوما أم لا؟ قلنا إما وجوبا كما يقال في حق الأنبياء، و إما يكون محفوظا فلا يصر على الذنوب، و إن حصلت هفوات في أوقات أو زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم، و قد قيل للجنيد: العارف يزني؟ فأطرق مليا ثم رفع رأسه و قال: و كان أمر الله قدرا مقدورا. إهـ..
و في الموضوع نفسه يقول الشيخ زروق في كتابه النصيحة الكافية ضمن الباب الخامس المعنون بالنصيحة لخاصة المسلمين. قال: و أما الفقراء فيسلم لهم في كل شيء لا يقتضي العلم إنكاره، وما وجب إنكاره أنكر عليهم مع اعتقاد كمالهن، إذ لا يبعد أن يكون للولي الزلة و الزلات، إذ الأولياء محفوظون، و الحفظ يجوز مع وقوع المعصية، إلا أنه لا يجوز مع الإصرار عليها، و قد سئل الجنيد رحمه الله تعالى: أيزني العارف؟ فقال و كان أمر الله قدرا مقدورا، و قال ابن عطاء الله ليت شعري لو قيل له: أتتعلق همة العارف بغير الله؟ لقال: لا. إلخ..

[3] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن، و لا يسرق حين يسرق و هو مؤمن، و لا يشرب الخمر حين يشربها و هو مؤمن، و التوبة معروضة بَعْدُ. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب بيان نقصان الإيمان رقم 170.

قال العلامة الشيخ محمد بن خليل في المسألة الخامسة عشر من مسائله الأربعينية ما نصه: قال خطيب بلد بالمغرب أن الولي محال أن يعصي الله تعالى. و قال خصمه ممن يدعي علم الباطن أن الولي يعصي الله تعالى. فاجتمع الناس و أتوا بهم إليَّا ورضيا بحكمي في المسألة. و قيل لي: من أخطأ من هؤلاء و من أصاب، فقلت لهم: كلاهما أخطأ الصواب. و ذلك أن الخطيب قد ألحق الولي بمنزلة الأنبياء في العصمة. و الخصم الآخر قد حكم أن الولي يعصي في حال الولاية. و كلاهما على خطأ. لأن الله تعالى لا يولي الفاسقين، فخرج من المسألة أن الولي يجوز أن يعصي، فإن وقع منه هذا الجائز لم يطلق عليه حينئذ أنه ولي.

قوله رضي الله عنه "قل له يرهن لنا هذا البرنوس في شيء من الخبز و الكرموس"

اعلم أن بعض المنكرين حين رأى هذه المقالة الشريفة مكتوبة في الإفادة استقبح ذكرها. و قال: أي فائدة في عدها من كلام الشيخ المنوه بشأنه بين ذوي المجادة، و ما درى هذا المنكر أن هذه المقالة تضمنت من حسن الشمائل ما يدل على رفعة همة سيدنا رضي الله عنه. و معاملة أحبابه و أصحابه بما به تنشرح صدورهم. و يكمل به نفعهم. و يتم به سرورهم. و بيان ذلك أنه رضي الله عنه لم يتصدر للمشيخة ليخدمه التلامذة المتعلقون بأذياله. فيسلب منهم الأموال بنصب شبكة الإحتيال في سائر أحواله. بل كان رضي الله عنه على خلاف ما يعهد من المتمشيخين في استخدام المريدين. خصوصاً في حضرات المذاكرة و المحاضرة و المسامرة. فكان هو القائم بالإنفاق و لا يفترق مع واحد منهم إلا على الأذواق. و يبالغ في مقابلتهم بما يدخل السرور عليهم. و يتحافظ على ما يحفظ قلوبهم مما يشوش عليهم. في كل ما يسديه إليهم. حتى أنه حضر ليلة مع الإخوان رجل غير صديق، فأعطاه سيدنا رضي الله عنه شيئا ليقضي به غرضا خارج الزاوية. و حين خرج أمر أصحابه بسد الباب. وأن لا يفتحوها لأحد بعده، و قال لهم: إنه لا يعود إليكم. و قد اشترينا ليلتكم بما دفعناه إليه. قاصدا بذلك رضي الله عنه عدم التشويش على أحبابه بحضور من ليس منهم. لأن انفراده معهم قاض بذكر بعض أسرار الطريق. و غيرها مما لا تنفع غير الصديق. بل ربما تضره على التحقيق.

و لهذا كان بعض خاصة المقدمين إذا حضر مع الأحباب يتفقدهم واحدًا واحدًا. ويستفهم عن أحوال الحاضرين معه و يقول: هل من سحاب بين الأحباب[1]. مستفهما عن غير المحب ليخوض مع الإخوان في فضائل الطريقة. و ما أعده الله لأهلها من

---

[1] من هذا القبيل ما جاء في الطبقات الكبرى للشعراني ص 11. قال: و كان الجنيد رضي الله عنه لا يتكلم قط في علم التوحيد إلا في قعر بيته، بعد أن يغلق أبواب داره و يأخذ مفاتيحها تحت وركه و يقول: أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى و خاصته و يرمونهم بالزندقة و الكفر. إهـ..
و يحكى عن شيخنا أبي العباس التجاني رضي الله عنه أنه كان كثير الإستشهاد في هذا الصدد بقول الشاعر:

لا يكتم السر إلا كل ذي ثقة   و السر عند خيار الناس مكتوم
السر عندي في بيت له غلق   ضاعت مفاتحه و الباب مقفول

جزيل الفضل. و هو من قبيل المحافظة على الأسرار. و التحافظ على ما ينتج من الدخيل في جمعهم من الإنكار[1]. و إن كان بعض من ليس من أهل الطريق قد يستاء بذلك الإستفهام عند حضوره. و لكن الإنكار أشد إساءة. و هو أحق بالمراعاة. بغير مداهنة و لا مدارات. كما يعرف ذلك كل منصف.

و لقد كان سيدنا رضي الله عنه مع أصحابه على جانب عظيم في معاملتهم بالجميل. و العمل على ترك ما يثير غيض المنكرين. مما يعد من هذا القبيل في هذا السبيل. شفقة عليهم. و رحمة بهم. و يسدي للجميع من المعروف ما ائتلفت به قلوبهم كما بيناه سابقا. و لا شك أن رهنه لبرنوسه في ما ذكره يظهر به لكل ذي بصيرة منورة أنه رضي الله عنه كان لا يكلف أصحابه بكلفة مع ترك التكلف بكل عفة. و قد اقتدى بالرسول صلى الله عليه و سلم في رهن درعه[2] كما في الصحيح.

[1] يستأنس لهذا بقوله صلى الله عليه و سلم خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون. إهـ.. و في رواية أخرى خاطبوا الناس على قدر عقولهم. إهـ..

[2] إشارة لما رواه البخاري عن مولاتنا عائشة رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم و درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير، و قال يعلى: حدثنا الأعمش: درع من حديد، و قال معلى: حدثنا عبد الواحد عن الأعمش و قال: رهنه درعا من حديد. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الجهاد و السير) باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه و سلم رقم 2849 (كتاب المغازي) باب منه رقم 4353.